آليَّات الصِّياغة التَّعبيريَّة الجديدة في الخطاب المقاماتي المغاربي

مقامة ابن شرف القيرواني عيِّنةً

health mechanisms new expressive formulation the speech Almqamata Maghreb

Maqamah Ibn Sharaf al-Qayrawani is a sample

عبد القادر مهدي*

تاريخ الإرسال: 2020/01/15	تاريخ القبول:2020/04/02	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخَّص:

تروم هذه الدِّراسة البحث في آليات الصِّياغة التَّعبيريَّة في الخطاب المقاماتي عند ابن شرف القيرواني؛ من خلال محاولة عرض شكلها العام ومقاربة تقنية الكتابة الحداثية فيها، وكذا استنطاق بعض ما تضمنته من مواضيع نقديّة وأدبيّة متعدِّدة، والإشارة إلى مسارات منهجه وأسلوبه الذي تخيَّرهُ وهو يَحْبِكُ خِطَابه التَّعبيري المنماز بتيمته السَّردية المحاوراتيَّة؛ حيث استطاع أن يصنع من خلاله معالم الجِدَّة والتَّفرُّد بين أدباء ونقاد عصره -أواخر القرن الخامس الهجري-، فكانت مقامته النقدية – مسائل الانتقاد - وكأنها بدعة أدبيّة ابتَكَرَتْ نسَقاً نثريَّاً أصيلاً جديداً، رغم أَنَّه احتذى فيها طريقة البديع في مقاماته.

الكلمات المفتاحية: مسائل الانتقاد، ابن شرف، آليات، الخطاب

Abstract:

This study seeks to study research in drafting mechanisms expressive in the speech Almqamata Ibn honor Cyrene; by trying to show the public form and approach technical writing modernist in which, as well as questioning some of the contents of the topics of cash and literarymultiple, pointing to his approach and his style tracks which Tejerh He loves his Expressionist Almanaz with his narrative oratorial dialogue,where he was able to make the features of novelty and exclusivity among the writers and critics of his time - the late fifth century AH - was his critical stature - issues of criticism - as a literary heresy created a prose format A new afternoon , Although he followed the way of Budaiya in his shrines.

Key words : *questions of criticism, son of honor, mechanisms, discourse*

المؤلف المرسل: عبد القادر مهدي mahdi.aboaymen@gmail.com

* **جامعة الجزائر02 أبو القاسم سعد الله** mahdi.aboaymen@gmail.com

توطئة:

المقامة لون أدبيٌّ وشكلٌ سرديٌّ، ظهر في القرن الرابع الهجري على يد بديع الزمان الهمذاني؛ الذي كان له الفضل في وضع أسس هذا الفن وترسيخ دعائمه وأصوله، ليفتح الباب واسعاً أمام عديد الأدباء الذين أتوا بعده، ومنهم ناقدنا المغاربي محمد بن شرف القيرواني*، "رابع النُّقاد المغاربة المشهورين"[1]، الذي اقتفى أثره ونسج على منواله مقامته النقديّة "مسائل الانتقاد". وقد ألّف ابن شرف مقامته هذه ردَّاً على نِدِّهِ ومنافسه ابن رشيق . يقول ابن بسّام في ذلك: « وبينه وبين أبي علي بن رشيق ماج بحر البراعة ودام، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام، وذهبا من المناقضة مذهباً تنَازعاهُ شرَّاً طويلاً وخلَّداه ذكراً محمولاً، واحتملاه – إن لم يسمح الله – وزراً ثقيلاً، وكان أبو علي أوسعهما نفَساً، وأقربهما ملتمَسا، ولابن شرف أصالة منزَعِه، وجلالة مقطعه، ومتانة لفظه، وسعة حفظه.. »[2]. وقد كان ابن شرف « أحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشتات الصَّواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعُب الرِّياح بأعطاف الغصون »[3].

وممَّا لا شك فيه أن ناقدنا ابن شرف القيرواني قد ألّف العديد من الكتب الأدبية والنَّقدية التي لم ينج منها بسبب أحداث الزّمان ومهالك الدَّهر غير تلك الترجمة شِبه المتكاملة التي خصَّه بها ابن بسّام الشَّنتريني** في كتابه الذَّخيرة، ونقل له مجموعة كبيرة من نثره وآرائه واقتطف جزءاً كبيراً من كتابه "أبكار الأفكار"، ومن مقامته "مسائل الانتقاد"[4]. وهي المدونة التي تعنينا في دراستنا هذه؛ لأنها الوحيدة التي خصّصَها ابن شرف لنقد الشعر والشعراء، وبعض الموضوعات المتعلقة بقضايا النقد والأدب، عارض بها البديع في مقاماته. فكيف تمكَّن ابن شرف من خوض غمار الكتابة في هذا الفن -المقامة الأدبيّة-، خاصّة ٍإذا علمنا أن الولوج إلى عوالم هذه التجربة الفنيّة الجديدة بالنسبة له ولعصره ليس بالأمر اليسير؟ وهل انماز عن غيره وهو يصيغ خطاب مقامته أم أنه نسج على المنوال وأهمل الجدَّة والأبداع والتَّفرُّد؟

وما ينبغي الإشارة إليه أيضا، أنَّ هذه المقامه النقديّة "مسائل الانتقاد" قد نُشِرت وطُبعت باسم ‹ أعلام الكلام ›[5]، كما نُشرت باسم‹ رسائل الانتقاد ›أو‹ مسائل الانتقاد ›[6]

والسّبب وراء هذا الخلط في الاسمين، أنَّ طبعتَ "الخانجي" أوردت - خلطاً- في الخاتمة بين الاسمين معاً، إذ جاء فيها « نُجِزَتُ مسائل الانتقاد بِلطف الفهم والانتقاد وهو أعلام الكلام... الخ» [7].

وقبل خوض غمار الحديث عن آليات الصِّياغة التَّعبيريَّة الجديدة في الخطاب المقاماتي المغاربي بعامة وعند ناقدنا ابن شرف بخاصّة، رأينا لزامَ تقديم حدٍّ جامع مانع لفنِّ المقامة في العُرفين اللُّغوي والاصطلاحي، مع تعريف موجزٍ لمقامته النَّقديّة أيضاً، من خلال محاولة عرض شكلها العام وتقنيّة الكتابة الجديدة التي احتذاها صاحبها فيها، مع الإشارة إلى منهجه وأسلوبه الذي تخيَّرهُ وهو يدبِجُها؛ وكذا توضيح مناسبة تأليفها وتقديم قراءةٍ في عنوانها وما تضمنته من مواضيع نقديّة وأدبيّة.

1. حدُّ المقامة بين اللُّغة والاصطلاح:

تعني المقامة في العرف اللغوي موضع القدمين والمُقام والمُقامة: بالضم: الإقامة والمَقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس[8].

ما يعني أن كلمة المقامة لها معنيان هما: المجلس، والجماعة أو ما يكون فيه من الناس، ثم سميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنّها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة لسماع موعظة أو محاضرة أو قصّة[9].

قال الأعلم الشّنتمري: المقامات: المجالس، سميت بذلك، لأن الرجل كان يقوم في المجلس، فيحض على الخير ويصلح بين الناس، وأراد بالمقامات أهلها ولذلك قال: « حسان وجوههم » والأندية: جمع ندي، وهو المجلس والمتحدث، وقوله:« ينتابها القول والفعل » أي: يثبت فيها الجميل من القول ويعمل به[10].

وجاء اللفظ بمعنى الجماعة من الناس في قول لبيد:

ومقامة غلب الرِّقاب كأنَّهم جن لدى طرف الحصير قيام[11]

أمَّا المقامة في الاصطلاح: هي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو نظرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون[12] أو هي نص مسجوع مرصع بالمحسنات البديعية وغير مقيد بطول معين، يتعاطاه الكاتب لإظهار

براعته وتفوقه، أو لإبداء رأيه في قضية ما، وقد تكون المقامة ستارا للتعبير عن نزعاته وتتخذ صورة حكاية أو مأدبة أو مقالة أو عظة[13] أو قل هي مجموعة حكايات قصيرة متفاوتة الحجم، جمعت بين النثر والشعر بطلها رجل وهمي، عرف بخداعه ومغامراته وفصاحته وقدرته على قرض الشعر، وحسن تخلصه من المآزق إلى جانب أنه شخصية فكاهية، نشطة تنتزع البسمة من الشفاه والضحكة من الأعماق، ويروي مغامرات هذه الشخصية التي تثير العجب وتبعث الإعجاب رجل وهمي آخر[14].

وبهذا المعنى اللغوي والاصطلاحي يمكننا القول إنّ مفاهيم المقامة تعدَّدت وتنوَّعت بين المجلس أو النَّادي الذي يجتمع فيه الناس لتداول القصص والحكايا بغرض من الأغراض، يرويها الرَّاوي على لسان بطله الوهمي في قالب نثري يحفل بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعيّة.

2. بين يدي المقامة النقدية (مسائل الانتقاد):

أ. مناسبة تأليفها:

لَزِمَ ابن شرف بلاط المعز بن باديس الصَّنهاجي ونال مقربته وفَضلَهُ، لِمَا أظهره من تفوقٍ وبراعةٍ في نظم الشعر وقوله، حيث اِلتقى هُناك بنخبةٍ من الأدباء والعلماء والكتَّاب والشعراء وعلى رأسهم ابن رشيق المسيلي. لكن سرعان ما وقعت بين الشَّاعرين المتعاصرين – ابن شرف وابن رشيق – مساجلات ومناظرات في حضرة المعِز بن باديس وليُّ نِعمتهما، وهذه المنافسة الكبيرة بينهما خلّفت غيرةً وعداوةً نفّرت قلب كُلٍّ منهما عن الآخر، وتدهورت العلاقة بينهما، حتى انتقلت إلى المناجزات النقدية الحادّة والمهاجاة الشِّعريّة اللّاذعة والتي استندت على نقطتين اثنتين هما:

1)النّسب: إنّ كلمة "شرف" كانت تطلق على امرأةٍ ناتجةٍ في عهدها، أمّا ابن شرف فكان يُعَيِّرُ ابن رشيق بأصلِهِ الرُّومي[15].

فبعد هذه المهاجاة النَّسَبِيَّة من ابن شرف تجاه ابن رشيق، ردّ هذا الأخير اعتباره بقوله:

أمَّا أبي فَرشيقُ لَسْتُ أُنكِرُهُ قُلْ لِيْ أَبوكَ وَصَوِّره مِنَ الخَشبِ[16]

2) الخِلقة: لقد عُرف ابن شرف أنّه كان أعور، فقال فيه ابن رشيق:

وأنتَ أيضاً أعورٌ أصْلَعُ فصَادفَ الَشبيهَ تَحْقيقُ[17]

إذن هذه المنافسة والمناجزة القوليّة بين الشاعرين الناقدين والتي أجّجت نار الغيرة بينهما، كانت حافزاً إيجابياً على المنافسة الإبداعية، ماحدا بهما إلى التأليف، فمقامة مسائل الانتقاد لابن شرف، جاءت محاولة للرَّدِّ على ابن رشيق وخاصة في كتابه القراضة.

ويُغلِّب بعض الدّارسين الظّن أن ابن شرف ألّف مقامته بعد أن هَجَرَ القطر التونسي، كما يستفاد من حديثه عن الحالة النفسية التي كان يُعانيها أثناء كتابته إيّاها[18]، إذ يقول في مقدمتها: « ولعمري ما أشكر من نفسي ولا أثني على شيء من حسي، إلا ظفري بالأقل ممَّا حاولته على ما أضرمته نيران الغربة من قلبي، وثلمته صعقات الفتنة من لُبّي، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطري، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري »[19].

وربما كان ذلك وهو بصقليّة، لا أثناء مُقَامِه بالأندلس حيث قضى بقيّة حياته يتردّدُ على ملوك طوائفها حتى وافته المنيّة سنة 460هـ[20].

ب. قراءة في عنوانها:

لقد احتّل العنوان في الأعمال الإبداعية الأدبيَّة والدّراسات النقدية المعاصرة، المكانة المتميّزة، باعتباره نافذة نُطِلُّ من خلالها ونستجلي فكرة عامّة وحويصلة الكم من الصّفحات التي يحويها العمل الأدبي، إذ يُعَدُّ العنوان عتبة لها علاقات جمالية ووظيفيَّة مع النّص وفحواه؛ لأنَّ عمليَّة التلقي التي تبرز وتتوضح من خلالها أهميّته « تَنصبُّ أوّل ما تنصَبُّ على العنوان »[21]، بوصفه أحد مكونات النص الذي يمنحه على صعيد التلقي أهميّة استثنائية، فمن خِلاله « يتأسّس التفاوض بين الخارج (القارئ) والدّاخل (النّص) »[22]، وتبعاً لهذه الأهمية التي حظي بها العنوان، رأينا أن نعقد قراءة لعنوان هذه المقامة النقدية والمتكونة من كلمتين: مسائل وانتقاد فماذا يقصد ابن شرف من خلال هذا العنوان المركب ؟ وماذا يعني بكلمتي مسائل وانتقاد؟

إنّ مفردة مسائل تعني في معاجم اللغة: سأل السؤال، مايَسألُه الإنسان، وسألته الشيء، وسألته عن الشيء سؤالاً ومسألةً.

ويُقال: رجُلٌ سؤالة، أي: كثير السؤال وسألته، وَسؤُلْتُهُ أي: قضيتُ حاجَتَهُ، والجمع مَسَائِل.

وبالإجمال فإنَّ كلمة مسائِل هي: مجموعة كثيرة من الأسئلة اللُّغوية التي يستعان بها في دراسة اللَّهجات الإقليميَّة والاجتماعية، ووضع المعثورات اللغويّة[23].

بينما تعني كلمة الانتقاد أو النَّقد، مايميّز الشَّيء الجيِّد عن الرَّديء، يقول صاحِب كتاب "نقد الشعر": نقدت الدَّراهم وانتقدتُها، أخرجت منها الزّيف، وميَّزت جيِّدها من رديئها، ومنه التناقد، والانتقاد هو تمييز الدّراهم[24]. و"ناقدت فلاناً: إذا ناقشته في الأمر"[25]، وهذا المعنى اللغوي يُحيلنا إلى معنى آخر وهو قولهم: « نقدت رأسه بأصبعي إذا ضربته، نقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها »[26]، وحتى لا نَعُدّ النّقد بأنَّه إشاعة العيوب ونشرها أو مجموع المآخذ التي يُعاب بها الشخص، فإننا نكادُ نقول إنّ النّقد هو:« دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها من المشابهة لها أو المقابلة ثمّ الحكم عليها لبيان قيمتها ودرجتها »[27].

من هنا نخلُص إلى القول بأن "ابن شرف" تَغيَّا من وراء عنوان مقامته النقدية – مسائل الانتقاد – طرح مجموعةٍ من المسائل على شكل نظراتٍ نقدية، تتميز بتفكير قوي وجرأة في الرأي متفرِّدة، واحتذى فيما ذهب إليه طريقة البديع في مقاماته من حيث السّجع، ووجود بطل عالمٍ وأديب يدعى أبا الرّيان الصّلت بن السّكن، الذي عزا إليه ابن شرف هذه الأحاديث، وأجراها على لسانه عن طريق تبادل الحوار التساؤلي في مختلف القضايا النقدية المتعدِّدة في المقامة، وجاءت هذه المناقشة على شكل حوارٍ قصصي يبرز سمات الخطاب السّردي، بين ركيزتين أساسيتين هُما الرّاوي والمروي له، وقد وظفت جملة مقول القول كعبارة "قال"، "قُلت"..، والتي تكرّرت كثيراً في متن المقامة، بالإضافة إلى استعمالهِ مفردة "زعموا"، والتي يُسنِدُ فيها الرّاوي[28] - ابن شرف – الزّعم قصداً إلى ضمير الجمع الغائب "نحن"، وذلك في قوله: (قلنا).

هذا ويُعدُّ العنوان الذي تخيّره ابن شرف وسماً لمقامته النّقدية، عنواناً ذكيَّاً يتساوق والموضوع المطروح، كما يمكننا القول إن استخدام ابن شرف لمصطلح "نقد" وتوظيفه في

عنوانها يُعدُّ علامة بارزة في التَّميُّز والحذق، بدليل أن هذا المصطلح استخدم وورَدَ أولاً عند كبار النقاد الأوائل، أمثال: قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر"؛ ثم عند ابن رشيق في كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، وأخيراً وليس آخراً عند ناقدنا ابن شرف في مقامته "مسائل الانتقاد".

جـ ـ مضمون المقامة ومنهجها وآليات صياغتها التَّعبيريّة من خلال معايير تصنيف الشِّعر والشُّعراءعن طريق أسلوب القصّ الحواري:

إنَّ مقامة "مسائل الانتقاد"، عبارة عن رسالة نقدية، احتذى فيها صاحبنا طريقة البديع في مقاماته من حيث السّجع والأسلوب، وتوظيف بعض العبارات التي تختصُّ بها المقامات، يقول صاحب الذّخيرة في ذلك:« ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه وصَبَّ فيها على قالبه، منها مقاماتٌ فيها بعض طول لكنَّه غير مَملُولٍ آخِذَةً بطرفٍ مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشُّعراء »[29]، وقد أوعز ابن شرف أحاديث هذه المقامَة إلى بطلٍ يُدعى "أبا الرَّيّان" أجراها على لسانه « وكان شيخاً همّاً في اللِّسان، وبدراً تمّاً في البيان، قد بقيَ أحقاباً، ولَقِيَ أعقاباً، ثمّ ألقته إلينا من باديته الأزمات وأوردته علينا العزمات، فامتحنّا من عِلمِهِ بحراً جارياً، وقَدَحْنَا من فهمه زنداً وَارِيَاً »[30].

فابن شرف إذ يصف لنا بطله الشّخصي العالم الأديب، بأنّه عاشر أجيالاً من الناس وأعقب حياتهم، إنَّما يُريد من وراء ذلك أن « يُنبّهنا إلى أنّه محيطٌ بأخبار المتقدِّمين والمتأخرين، وأنّه على جانب كبير من العلم والأدب، فإذا نطق على لسانه فقد نطق بالصّواب »[31].

إذن مقامة ابن شرف النّقدية قد اعتمدت في بنيتها على الحوار السردي التخاطبي بين شخصين، الأوّل يطرح الأسئلة وهو السّارد، ونعني به المؤلف نفسه، كما أنّ الثاني يجيب على تساؤلات الأوّل – الرّاوي – ويمثل بطله رجل وهمي يدعى أبو الرّيان، الذي عرف بفصاحته وحسن تخلصه .

أمّا عن آلية دبج هذه الرِّسالة، والتي تُعَدُّ – في اعتقادنا – أوّل قالبٍ نقدي في صورة مقامة طويلة، اعتمد فيها صاحبنا – ابن شرف – طريقة الحوار السّردي الذي استوحاه

من مقامات الهمذاني وبنى على قالبِه من أسلوب الإمتاع، غير أن ابن شرف قد تميّز عن الهمذاني في مقامته بإبداع بلاغة الإقناع والإمتاع معاً. عن طريق عملية استجوابيَّة تناوبية – سؤال جواب -، كما هو معروف في النصوص الدِّراسية " فهي إذن تقوم على الحوار المُعبَّر عنه لغوياً والموزَّع إلى ردود متناوبة وهو مألوف في النُّصوص الدرامية "[32].

إذ إنّ « الشّارح محكومٌ عليه أن يتطرّق إلى ميادين متنوعة (...) يكون معجميا حين يوضح معنى الألفاظ الغربية (...) ويكون جغرافياً حين يُصادف اسم مكان (...) ومؤرخا حين يُصادف شخصية تاريخية (...) ويكون بلاغياً حين يسمى الصور البلاغيّة»[33].

وتحتوي المقامة على نقد مجموعة كبيرة من الشعراء المشاهير من القدماء الجاهليين والإسلاميين وشعراء الغزل العذري، وكذلك المحدثين من الطبقة المتأخرة في الزمان، المتقدمة في الإحسان، كالمتنبي وكُشَاجِم الفارسي، والصّنوبري وبعض شعراء المغرب والأندلس من أمثال ابن عبد ربّه وابن هانئ وابن درّاج القسطلي، وقد رأيناه يحاول جاهداً أن يُقدم تعريفاً أو تقييماً لكل شاعر يبيّن من خلاله خصائصه الفنية وأهمّ ما اشتهر به في عصره[34]، ثم انتقل ابن شرف في مختتم مقامته - والتي سَوّاها في عشرين مقامة كالهمذاني – للحديث عن المبادئ النقدية والتوجيهات العامة لكل من يتصدى للنقد، أوضح فيها بعض العيوب التي تقع في الشعر، مثل اللحن وخشونة حروف الكلمة والتعقيد والكسر وغيرها من المآخذ التي يسقط فيها الشعراء في بعض أشعارهم، كما تعرّض فيها باختصار إلى قضايا مهمة في النقد العربي منها: (قضية اللفظ والمعنى والقديم والجديد، ومشكلة السرقات، والمطبوع والمتكلّف وغيرها)[35]، وقد خصص خاتمة مقامته للحديث عن عيوب المتنبي، مع مختارات من الأبيات والمقطوعات الشعريّة الجميلة، لينتهي في الأخير إلى القول بـ« أنّ ما سَلِمَ من جميع ما أوردناه فهو حِرْز السّالِم »[36].

أمَّا عن المنهج الذي تخيّره ابن شرف في رسالته وهو يَصوغُ أحاديثه- التي قال عنها في مقدمته -: « مختلفة الأنواع، مؤتلفة في الأسماع، غريبات التّراجم، واختلق فيها أخباراً فصيحات الكلام، بديعات النظام، لها مقاصد ظِراف، وأسانيد طِراف (...) فأقمت من هذا النّحو عشرين حديثاً »[37]. فقد اهتم فيها بإبراز أهم خصائص الشعراء ومنازلهم ومذاهبهم،

كما عُني بنقد عديد النصوص الشّعرية متقصِّداً التعمُّق والتفصيل ، ولكن ابن شرف لم يلتزم ولم يتقيّد بأسلوب المقامة في جميع رسالته، بل توسّع في قولِهِ وأطنَبَ، فخالف بذلك أعراف بناء المقامة التي تعتمد في أصلها على الاختصار والقِصَر حيث إنّ « حجمها العام لا يكاد يتجاوز خمس صفحات أو نحوها، فقد نجدُ مقامات أطول، وقد نجدُ مقامات أقصر، ولكن هذا الحجم هو مُعَد لها على وجه التقريب لا التَّحديد»[38]، وتجلّى لنا هذا التباين والتفاوت في الطُّول بين ثنايا مقامته، فقد أطال الوقوف مثلاً عند أبي نوّاس نسبياً وهو يتهمه بأنه مسؤول عن نزول الشعر الرّفيع إلى مستوى العامة بقوله إنَّه: « ترك السِّيرة الأولى ونكب على الطريقة المثلى وجعل الجِدَّ هزلاً والصّعب سهلاً »[39]، وكذا في النقد النّفسي لامرئ القيس، والنّقد الفني لزهير بن أبي سلمى، بينما ألفيناها معتدلة في بعضها، وقصيرة جداً في بعضها الآخر، خاصة عندما تعرّض لقضية العيوب العَروضية في مقامته، حيث ألفيناها لا تتجاوز حينئذٍ السّطر أو السّطرين.

هذا، ولقد ورد ذكر أسماء طائفة من الشعراء في مقامة ابن شرف – **مسائل الانتقاد**– عن طريق تخيُّر خَطِّ منهجي اعتمد فيه المؤلّف على انتقاد ودراسة الشعراء الذين سبق تناولهم في كتابي "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي، وكذا "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، فأورد نُتفاً من أشعارهم ونبذاً من أخبارهم مركزاً على من اشتهر منهم من شعراء العصر الجاهلي وصدر الإسلام وما يليهم من أخبار شعراء العصر الأموي فالعباسي، مُعلِّقاً عليها بما يوحي به المقام، غير أنَّ الجديد الطَّارف الذي عُدَّ إضافة محمودة لابن شرف هو عنايته بذكر طائِفة من شعراء المغرب والأندلس إلى جانب المشارقة، فألفيناه يتحدَّث عن ابن عبد ربه وابن هانئ وابن درَّاج القسطلي وعلي التونسي؛ كما تعرَّض للصّنوبري و"الخَبَزْ **أرزي**" في سياق ضَمَّ فيه أبا تمَّام والبحتري وابن الرُّومي والمتنبي.

وقد تعرَّض ابن شرف بالنقد لما لا يقلُّ عن ثمانية وأربعين شاعراً ينتمون إلى مختلف العصور الأدبيّة، عدا شعراء الغزل العذري الذين تحدّث عنهم مجتمعين في طبقة خاصّة كما فعل من سبقه من النقاد الأوائل، وذلك سبب أخذه بمقياس

الاختصاص في نوع معين من الغرض الشعري وهو الغزل، حيث لم يذكر من شعراء الغزل الماجن الذي كان يحمل رايته عمر بن أبي ربيعة أحداً؛ وهذا لأنَّه كان يُمجُّ هذا النَّوع من الغزل بالنظر إلى إباحيته ومجونه.

وقد اعتمد المنهج التاريخي الذي يُعنى بالتَّحقيب الزّمني والترتيب التسلسلي وهو يرصُدُ أخبار الشعراء وشعرهم، من جاهليين، فمخضرمين ثُمَّ أمويين فعبّاسيين، ويختم بشعراء العصر الأندلسي الذين أغفلهم النقاد المشارقة في مصنفاتهم ومظانهم النقدية، على الرُّغم من أنّ ابن شرف قد تعرَّض بالحديث عن بعضهم فقط، إذ ذكر خمسة أو ستة منهم لا أكثر. فقد اقتطف من كُلِّ عصر ساقه ثلة من الشعراء؛ إلّا أنّ الملاحظ أنَّه لم يَزِدْ حديثه عنهم على كلمات موجزة، وقد تكون هذه الكلمات غير ذات جَدوى في باب النقد كقوله في الرَّاعي: « **وأمَّا الرَّاعي عُبيد فَجُبِلَ على وصْفِ الإبِل، وشَغَله هواها عن الشعر في سِواها، سِوى التعلُّل بالنّزر القليل فصار بالرَّاعي يُعرف ونَسيَ مالَه من الشَّرف** »[40].

وكُلُّ هذا يدعونا إلى القول بأنّ عمل ابن شرف كان خاضِعاً لنظرة علميّة منطقيّة تحكمه وتنظِّمه، وأنَّه لم يكن قَطُّ عملاً عفوياً ولا عشوائياً اعتباطياً .

ثُمَّ إنَّ القمين بالملاحظة أنّه وظَّف اسم الشُّهرة لكل شاعر معروفٍ تخيَّرهُ مثل: المتنبي، والملك الضِّليل، والخبز أرزي وغيرهم، بدليل قوله: « **قال أبو الرَّيَّان: لقد سمَّيت المشاهير و أبقيتُ الكثير** »[41]. وقوله أيضاً: « **فقلت: لا أعنتك بأكثر من المشهورين، ولا أذكُرُ رأيَك إلّا في المذكورين** »[42].

كما قام بالتَّمثيل الشعري لبعضهم دون الآخرين بطريقة يمكن أن نقول عنها إنَّها اختياريَّة عمديَّاً وليس اعتباطيّاً، ثُمَّ إنَّه عُني بإبراز ما يتميَّزُ به كُلُّ شاعر في الشعر وغيره، على نحو تعميمي يتضمَّنُ الحكم والخبر على السَّواء، مُركِزاً على الجانب البلاغي وعلى الجوانب الجمالية والفنيَّة التي تتسِّم بها أشعارهم المختارة الواردة في مقامته، حيث كان حريصاً أشدَّ الحِرص على الحكم على الشعراء بحسب ما تتوافر عليه نصوصهم من جودة أو رداءة. ويهتمُّ بدراسة النّص من أجل النَّص ليتمثَّل عندها ما نادت به المدارس

النَّقديّة الحديثة، ويَشْجُبُ بذلك مقياس الزَّمن الذي كان سائِداً عند أنصار القديم، ولا سيَّما ابن سلام الجمحي.

و الملاحظ أنَّ ابن شرف قد وسَّع أعطاف القول في ذِكره لعديد الشعراء ومن مختلف العصور والأزمنة إلى غاية عصره، خاصّة وهو يُقدِّم إشارات سريعة وخاطفة عن بعض الشعراء، وتوقفه عند بعضهم، ولا شكَّ أنَّه كان قاصِداً ذلك. ونأخذ من الأمثلة على إشاراته المختصرة العجلى قوله في طرفة بن العبد: « **ولقد خُصَّ بأوفر نصيب من الشعر، على أنزر نصيب من العمر، فملأ أرجاء ذلك النّصيب بصنوفٍ من الحكمة، وأوصافٍ من عُلوّ الهمَّة** »[43].

والذي نتبيَّنه من هذا النَّص المقتضب أنَّ ابن شرف قد أطلق حكمه النقدي على شعر طرفة بن العبد الذي يرى أنَّه يتميَّز بمعيار الجودة، فعلى الرُّغم من أنَّه لم يُعَمِّر طويلاً إلّا أنّ الشعر الذي قاله كان كافياً لأن يرفع من مكانته إلى مصافِّ الشعراء الكبار – بسبب جودته لا كثرته -؛ حيث أجمع النقاد على أنَّ طرفة من أصحاب المعلقات، وتغلُب على شعره البداوة الخالصة، حيث يُكثِرُ الغريب في ألفاظه، وتراكيبه قويّة ويتخلَّلُها شيءٌ من الغموض والإبهام، كما تعدَّدت أغراض ومواضيع شعره، حيث نظم في الحماسة والهجاء والفخر والحكمة، أمَّا عن حكمته في شعره، فقد استمدَّها من حياته، ومحيطه وتقاليده، وكذا من طريقة معاملة أهله له، وتحدَّث غالبية حكمه عن الحياة والموت، ويرى أنَّه لا بُدَّ أن يستفيد الإنسان من حياته، فلا حياة بعد الموت[44].

كما يُجيد طرفة الوصف في شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع مقصديَّةٍ في القول، ومعاظلة في بعض التَّراكيب، واسترسالٍ في حوشي اللَّفظ، وخفي المعنى، وكذلك كان هجاؤه على شِدَّة وقعه[45].

ومن معلَّقته:

لِخَولَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسَىً وتَجَلَّدِ

ومن أمثلتنا على إطالة وقوفه النَّقدي نسبيّاً، قوله في أبي نوّاس الذي عاب عليه عدوله عن القياس والمألوف المتوافق والمتعارف عليه، فأبان أنَّه « **ترك السِّيرة الأولى ونَكَبَ على الطريقة المثلى وجعل الجِدَّ هزلاً والصّعبَ سهلاً** »[46]، ومَرَدُّ ذلك عِنده أنَّ أبا نوّاس ظهر وقد انحلّت أسباب العربيّة وملت الفصاحة، فنزل بالشعر إلى مستوى الأفهام في عصره فرغب النّاس في شعره، هلى الرُّغم من قدرته على الإتيان بالشعر القوي، لكنَّه عُني بما يشتهر في سوق المتلقين من الجماهير الذين وجد منهم تجاوباً وإقبالاً كبيرين، فخلط عندئذٍ "بين الجدِّ والهزل وكذلك بين الصّعب والسَّهل وأتاح بذلك للفوضى من أن تتسَرَّبَ إلى عمود الشعر العربي وأساليبه وطُرُقِه"[47].

وعلى الجملة فإنَّ من شاء نقده بِحقٍّ، وجَدَ النَّاس ضِدَّه؛ لأنَّهم -كما قال ابن شرف -"**يتعلقون بخفّة روحه وسهولة كلامه الملحون**"[48]، ما سبَّبَ انحدار شعره وانحطاطه، وهذا - في اعتقادنا- حكم جديد على أبي نوّاس، يُخالف ما عهدناه من آراء النقاد، حيث إنَّه لا أحَدَ يُنكِرُ أنَّ في شعر أبي نوّاس شيئاً كثيراً من السَّخف والمجون واعتماد الأسلوب السهل الذي يبلغ في سهولته حَدَّ الركاكة أحياناً، ولكن شتَّان بين ما يقوله ابن شرف وبين قول القاضي الجرجاني بأنّ في شعره تفاوتاً؛ ذلك أنّ ابن شرف ينكر – من طرف خفي – أكثر شعره، سوى الطرديات، ويراه مسئولاً عن النزول بالشعر إلى مستوى العامّة[49].

وتأسيساً على ما سبق يمكننا القول: إنّ ما يُحمَدُ لابن شرف من جِدّة في تصنيفه وترتيبه للشعراء وانتقاده أشعارهم، هو ذكره لطائفة من شعراء المغرب والأندلس الذين لم يكن لهم أثرٌ في الدِّراسات النقدية المشارقية، وكذلك عنايته بمعيار الجودة الفنيّة في الشعر وجعله أساساً يعتمد عليه في تقييم أشعار الشعراء وإنزالهم المنزلة التي يستحقونها، وبالتّالي يُعَدُّ معيار جودة الشعر من أحكَمِ وأقدَرِ المعايير التي تحدِّد مقدرة الشَّاعر الفنيّة ومدى حُسنِ نَسجِهِ وبراعة نظمه. ولهذا ألفيناه لم يأخذ بعين الاعتبار سيرة الشعراء وأنسابهم، ولم يعنَ بعنصر الإنسان والعنعنة المعتادة في الدِّراسات النقديّة القديمة، حيث إنّه أخذَ النّص بمعزِلٍ عن حياة قائِله أو محيطه أو تقاليده.

خاتمة:

إنَّ من جملة النَّتائج الموضوعيّة التي أفضت إليها هذه الورقة البحثيّة هيَ:

- تُعَدُّ مقامة ابن شرف أوّل قالبٍ نقدي في صورة مقامة طويلة، اعتمد فيها طريقة الحوار السّردي الذي استوحاه من مقامات الهمذاني وبنى على قالبِه خاصّة في أسلوب الإمتاع، غير أنَّه تميّز عنه وخالفه بإبداعه بلاغة الإقناع والإمتاع معاً. عن طريق عملية استجوابيَّة تناوبية – سؤال جواب -، كما هو معروف في النصوص الدِّراسية، فجعلها حينئذٍ تقوم على الحوار المُعبَّر عنه لغوياً والموزَّع إلى ردود متناوبة وهذا ماعتدناه في النُّصوص الدرامية التي تُعنى في بنيتها على آليَّة الحوار السَّردي التَّخاطبي بين شخصين، الأوّل يطرح الأسئلة وهو السّارد، ونعني به المؤلف نفسه، كما أنّ الثاني يجيب على تساؤلات الأوّل – الرّاوي –.

أمّا عن آلية دبج وصياغة هذه المقامة فقد كشفَ لنا ابن شرف عن براعة فائقة ومقدرةٍ نقديّةٍ واضحة، خالف من خلالها أعراف بناء المقامة القصصيَّة المعروفة، حيث استطاع أن يستثمر فيها مادّته المعرفية حول الشعر والشعراء وقضايا النّقد المختلفة، باعتماده أسلوباً جديداً في الكتابة النقديّة، تمثّل في خصائص هذا الفن الذي ينماز بالإيجاز والسّجع، والأسلوب السّهل واللفظ الرَّقيق، ويغلب عليه القصد الفنيُّ عموماً، وهذا النّوع من الكتابة كان له رواجاً كبيراً في عصره وبيئته.

- الهوامش :

*** هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني، ولد في أواخر القرن الرابع نحو سنة 390هـ/ 1000م في مدينة القيروان. وتلقى فنوناً من المعارف في مجالسها الأدبية على أساتذة كبار أمثال أبي الحسن القابسي، و أبي عمران الفاسي و أبي عبد الله القزازو أبي إسحاق الحصري. ولم يكن ابن شرف يحس بجذوة الأدب والشعر تتقد في صدره حتى تاقت نفسه إلى بلاط المعز، فصار أحد شعراء حضرته، إذ كان شاعراً مجيداً متصرفاً في فنون الشعر. وقد جمعته الصلة في ذلك المجلس بابن رشيق فكانت بينهما منافسة وخصومة.**

ولمّا اربدّت سماء القيروان إثر زحف الأعراب عليها، غادرها ابن شرف إلى المهدية في صحبة المعز و ابن رشيق. ثم لم يلبث أن اتخذ سبيله إلى صقلية ثم الأندلس التي ظل مقيماً بها حتى أدركه الموت نحو سنة (460هـ/1067م).

- ينظر: ابن بسام الشنتريني، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح:إحسان عباس، مج1، ق4، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1989م، ص133.

[1] عبد الكريم النهشلي، إبراهيم الحصري، ابن رشيق المسيلي، ورابعهم ناقدنا ابن شرف.

[2] ابن بسام الشنتريني ، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مصدرسابق، ص134.

[3] المصدرنفسه، ص133.

** ابن بسّام الشَّنتريني: هو الأديب أبو الحسن علي بن بسّام التغلبي الشنتريني، من أهل الأندلس بلغ من الشهرة مبلغاً عظيماً، حتى أغنت شهرته الكثيرين عن ذكر خبره، فلم يصلنا عن حياته الشيء الكثير، قال عنه أبو سعيد:" ونثره في كتاب الذخيرة يدلُّ عن علوّ طبقته"، فقد كان شاعراً وناثراً، إلا أن شعره كان دون نثره.

- يُنظر: ابن سعيد المغربي،المغرب في حلى المغرب، تحـ: شوقي ضيف، ج1، دارالمعارف، ط4، القاهرة، (د.ت) ، ص417.

[4] يُنظر: بشير خلدون، الحركة النقدية، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص152.

[5] نشرها وطبعها "الخانجي" بهذا الاسم في سلسلة الرّسالة النّادرة سنة 1926.

[6] هذا هو اسمها في مخطوط الأسُكوريال "رقم 356"، وقد نشرها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بتونس (ونقلها كذلك الأستاذ محمد كرد علي في رسائل البلغاء "343/300". ثم نشرها الأستاذ شارل بلا باسم (مسائل الانتقاد) مع ترجمة إلى الفرنسية (الجزائر1953م).

- يُنظر تفصيل هذه القضية أكثر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دارالثقافة، ط1، بيروت، 1971م، ص467.

[7] ابن شرف القيرواني، مسائل الانتقاد، تحـ: شارل بلا، طبعة كاربونيل، (د.مط)، الجزائر، 1953م، ص46.

[8] ابن منظور،لسان العرب، مط دارصادربيروت، ، جـ12، 1968، ص 498.

[9] ينظر: حنَّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دارالجيل، ط1، 1986م، ص615.

[10] الأعلم الشنتمري،شعرزهيربن أبي سلمى، تحـ: فخرالدين قباوة، المط العربية – حلب، 1970م، ص 38.

[11] إحسان عباس، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، مط وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م، ص290.

[12] زكي مبارك، النثرالفني في القرن الرابع، منشورات المكتبة العصرية دارالجيل، بيروت1975م، ص242.

[13] سحرماهرأحمد، المقامات في العصرين المملوكي والعثماني، دراسة تحليلية نقدية (ر، ماجستير)، إشراف: نبيل خالد، غزة، 2015/2014م، ص42.

[14] (بديع الزمان الهمذاني): في 2019/11/07، /http// www . shammar. Org/vb

[15] ابن شرف، مسائل الانتقاد، مصدرسابق، طبعة المدني، ص35.

[16] ابن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزَّمان، تحـ: إحسان عباس، ج2، دارالثقافة، بيروت، 1970م ،ص86.

[17] المصدرنفسه، ص87.

[18] أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف الجديدة للنشر، (د.ط)، الرّباط، 1985م، ص369.

[19] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص4.

[20] أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان، مرجع سابق، ص370.

[21] الجزَّار محمد فكري، 1998م، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص122.

[22] خالد حسين حسن،2007 م، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية، (د.ط)، التكوين للتأليف والتَّرجمة والنشر، دمشق، ص41.

[23] عبد الله العلايلي، 1974م، الصِّحاح في اللغة والعلوم، مج1، مادة "سأل" (س)، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، ط1، بيروت، ص561.

[24] أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر،نقد الشعر، تحـ:عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العلمية، بيروت. لبنان، (د. ت)، ص12.

[25] عبد الله العلايلي، تجديد صِحاح العلامة الجوهري والمصطلحات العلمية والفنية للجامع والجامعات العربية، مج2، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، ط1، بيروت، (د.ت)، ص599.

[26] أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النَّهضة المصرية، الطبعة العاشرة، 1994م، ص114.

[27] المرجع نفسه، ص115.

[28] لقد توصلت الأستاذة مريم فرنسيس في كتابها (في بناء النص ودلالته) إلى القول بأنّ: «السّارد يأتي في أوّل سردِهِ بما يعبرعن موقفه من الحكاية المرويّة، وكأنه يصرح أنه ليس مسؤولاً عن صحة ما يروي و أنه مجرد ناقل له، فنص كليلة ودمنة يبدأ بفعل "زعموا" ونص ألف ليلة وليلة بـ "حكي والله أعلم "».

- مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته، (نظم النص التخاطبي – الإحالي)، ج2، سلسلة دراسات لغوية، منشورات وزارة الثقافة، ط3، دمشق، 2000م، ص44.

[29] ابن بسّام، الذَّخيرة، ق4، مج1، ص154.

[30] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص2.

[31] أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصّنهاجي، ص370.

[32] حسن بحراوي، بنية الشكل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1990م، ص166.

[33] عبد الفتاح كيليطو، المقامات (السرد والاتساق الثقافية)، تحـ: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط1، الدّار البيضاء، 1983م، ص167/165.

[34] أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصّنهاجي، ص370.

[35] بشير خلدون، الحركة النقدية، مرجع سابق، ص153.

[36] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص102.

[37] المصدر نفسه، ص02.

[38] عبد المالك مرتاض، فن المقامة في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1980م، ص528/527.

[39] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص29.

[40] المرجع نفسه، ص30.

[41] نفسه، ص86.

[42] نفسه، ص84.

[43] نفسه، ص91.

[44] عمر فروخ، ، تاريخ الأدب العربي، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م، ص135/136.

[45] محمد بوزواوي، موسوعة شعراء العرب، موسوعة شعراء العرب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2012م، ص323.

[46] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص29.

[47] بشير خلدون، الحركة النقدية، ص158.

[48] ابن شرف، مسائل الانتقاد، ص29/30.

[49] إحسان عبّاس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص469.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊